شبهات المستشرقين والمستغربين حول متن الحديث والرد عليها

أ.د. مجاهد مصطفى بهجت

أكاديمية الدراسات الإسلامية بجامعة ملايا

ماليزيا

د. عفاف عبد الغفور حميد

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الشارقة

الإمارات

mujahidbahjat@hotmail.com

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وأصحابه ومن والاه وتبعه بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

تأتي فرضية البحث لتقرر أن النص النبوي يتفق مع القرآن أولاً لأنهما من مصدر واحد {إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى}، والحديث كذلك يتفق مع العقل والواقع وليس كما يزعم بعض المستشرقين والمستغربين أن الحديث يعارض القرآن والعقل والواقع.

وتأتي أسباب اختيار البحث كامنةً في أهمية متن الحديث النبوي لأنه مصدر التشريع بعد القرآن الكريم، وقد جاءت معايير توثيق الحديث التي طبقت عليه دقيقة لاعتبارها بمنزلة الوحي القرآني في التلقي عنها، ومن هنا وجب الرد على هذه الشبهات بعد إنكارها ودحضها بالأدلة العلمية.

ومن أهداف البحث تحقيق هدف الندوة بالكشف عن شبهات المستشرقين والمستغربين حول الحديث النبوي والرد عليها، دفاعاً وذوداً عن السنة النبوية التي لم تنقطع الشبهات عنها بانتهاء الاستشراق، بل استمرت مع جيل تلاميذ المستشرقين من المستغربين والحداثيين.

وتأتي أهمية البحث في الرد على المنحرفين وكشف باطلهم ليتبين العقلاء تلك الشبهات وأخطارها، وخاصة الطلبة والدراسين من الأجيال الجديدة والمسلمين عامة، وليكون هذا البحث ضمن جهود الباحثين وإسهامتاهم في هذه الملتقى لتحقيق نصرة الرسول صلى الله عليه وسلم.

وحدود البحث ضمن شبهات الاستشراق والاستغراب حول متن الحديث، والمنهج المتبع هو المنهج المكتبي القائم على الوصف والعرض للشبهات مع المنهج التحليلي في الرد على تلك الشبهات.

وستكون ورقة البحث في تمهيد ومحورين وخاتمة:

التمهيد: بيان مصطلحات البحث

المحور الأول: بيان شبهات المستشرقين والرد عليها.

المحور الآخر: بيان شبهات المستغربين والرد عليها.

الخاتمة: الخلاصة والتوصيات.

وأخيراً نحيّي هذه اليقظة الإسلامية والنهضة الفكرية الواعدة في التواصل بين الحاضر والماضي، ونبارك لأكاديمية الدراسات الإسلامية بجامعة ملايا جهودها الكبيرة في رعاية المؤتمر، وندعوه تعالى أن يبارك في الهمم العالية ويوفق ولاة الأمور الغيورين على تراثهم لسلوك طريق السداد والرشاد وبلوغ سلم العلو والرفعة وتحقيق المثال والكمال.

تمهيد

بيان مصطلحات البحث

مصطلحات عنوان البحث المهمة هي: المتن والاستشراق والاستغراب والحداثة وهذا بيان وتوضيح لها.

الاستشراق لغةً واصطلاحاً:

الاستشراق لغة: كلمة مشتقة من كلمة (شرق)، يقال: "شرقت الشمس شرقاً وشروقاً إذا طلعت"[١]، وكلمة الشرق والمشرق (بكسر الراء)، اسم الموضع، أي جهة شروق الشمس[٢]، فالكلمة إذن مشتقة من كلمة شرق أي ناحية شروق الشمس، والهمزة والسين والتاء للطلب أي طلب مافي الشرق.

المستشرق لغة: من طلب الشرق واتجه إلى تعلم لغته وآدابه، وفي معجم المنجد "المستشرق: العالم باللغات والآداب الشرقية"[٣]، ويطلق لفظ الشرق عادة على المنطقة العربية ومناطق شعوب آسيا وأفريقيا، أما لفظ الشرق الأوسط فيطلق على المنطقة العربية فقط، وفي العصر الحاضر أطلق لفظ العالم الثالث على تلك الشعوب التي كان يطلق عليها في الماضي العالم الشرقي، أو دول الشرق[٤].

الاستشراق اصطلاحاً: جاءت لكلمة الاستشراق تعريفات اصطلاحية كثيرة، ولا نجد تعريفاً جامعاً مانعاً لها، وذلك لتغير المفهوم بمرور الزمان وتجدد المعارف، ونختار منها تعريفين بارزين هما:

"المحاولة التي قام بها ويقوم بها بعض مفكري الغرب للوقوف على معالم الحضارة الإسلامية، وثقافة الشرق وعلومه"[٥]، و"دراسة علوم الشرق، وهو حركة علمية غربية تستهدف التعرف على حضارات الشرق وأديانه ولغاته وتاريخه وعلومه واتجاهاته النفسية، وأحواله الاجتماعية ليسهل التعامل مع العقلية العربية الإسلامية، وكذا السيطرة عليها وتدمير مقوماتها"[٦].

ويتضح من التعريف أن للاستشراق مفاهيم متداخلة ومتكاملة، فهو يتناول المجتمعات الشرقية بالدراسة والتحليل، من قبل علماء الغرب، والتعرف على التمييز المعرفي والعرقي بين الشرق والغرب، وتركزت كتابات الاستشراق حول الفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية بصورة خاصة، وفي مقدمة ذلك دراسة لغات الشرق التي هي وسيلة للتعرف على عقائده وتراثه وحضارته، وهو ما أنتج لنا – على اختلاف دوافعه– ما يطلق عليه الاستشراق.

ويرى بعض المفكرين بأنه على الرغم من اعتبار الاستشراق علماً من العلوم الإنسانية فإنه لا يتمتع كبقية العلوم الأخرى بصفات الديمومة والثبات والاستقرار، ولذلك يمكننا أن اطلاق اسم (الظاهرة) عليه[٧]، ويؤكد بعض الباحثين أن "الاستشراق في دراسته للإسلام ليس علماً بأي مقياس علمي، وإنما هو "أيديولوجية " خاصة يراد من خلالها ترويج تصورات معينة عن الإسلام بصرف النظر عما إذا كانت هذه التصورات قائمة على حقائق، أو مرتكزة على أوهام وافتراءات"[٨].

---

[١] لسان العرب، ابن منظور، ١٠ / ٢١٧٣، القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ٢/١١٩٠.

[٢] المصباح المنير، ١/ ٣٣٢، ومختار الصحاح ص ٣٣٦.

[٣] المنجد في اللغة، لويس معلوف، ص ٣٨٤.

[٤] عقائد وتيارات فكرية معاصرة، مجموعة مؤلفين، ص ١٥٥.

[٥] المصدر السابق، ص ١٥٥.

[٦] الاتجاهات الفكرية المعاصرة، علي جريشة، ص ١٥. الثقافة الإسلامية، د. حامد محمود اسماعيل، ص ٣١٧.

[٧] الظاهرة الاستشراقية، ساسي سالم الحاج، ص ٢٠، نقلاً عن أمامة محمد سالم الحبال، موقف المستشرقين من السنة، ص٥٦.

[٨] الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، محمود حمدي زقزوق، ص ١٢.

أما **المستشرقون**: فيطلق على المفكرين المشتغلين بدراسة علوم الشرق وتاريخه وحضارته، وأوضاعه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية[٩]، وبصورة أدق: هم المفكرون الغربيون الذين عنوا بالدراسات الإسلامية، والتراث الإسلامي، وعلى هذا فالمستشرق لا يكون شرقياً ولا عربياً، مسلماً كان أم غير مسلم[١٠].

ومعنى التعريف هو دراسة غير الشرقيين لأحوال الشرق بكل جوانبه، هذا هو المفهوم الواسع، ولكن ما يعنينا هو المعنى الخاص للاستشراق والمستشرقين، وهو الدراسات والأبحاث الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامي في لغاته وآدابه وتاريخه وعقائده وتشريعاته وحضارته بوجه عام، والفكر الإسلامي أو أي من علومه بشكل خاص.

الاستغراب لغةً واصطلاحاً:

الاستغراب لغة: استغرب في الضحك وأغرب إذا أكثر منه... وفي الحديث أنه "ضحك حتى استغرب" أي بالغ فيه. وقيل إن الاستغراب هو القهقهة. وفي مذهب أبي حنيفة من استغرب ضاحكا في الصلاة أعاد الصلاة والوضوء. واستغرب الدمع: سال[١١].

الاستغراب اصطلاحاً: المعنى الاصطلاحي بعيد عن الأصل اللغوي وإن كان الاشتقاق يسمح به والمقصود بالاستغراب طلب الغرب والميل إليه والتعلق بثقافته. يقول أبو الأعلى المودودي: "المستغربون: المائلون إلى الغرب المفتتنون بحضارته، هكذا استعمل هذه الكلمة الكاتب الكبير محمد البشير الابراهيمي في بعض مقالاته في مجلة "البصائر"، فاخترناها على غيرها من الكلمات في هذا المعنى كالمتغربين والمتفرنجين"[١٢]. وقد ذكر الدكتور مصطفى السباعي المستغربين مع المستشرقين في مقدمة كتابه فقال: "هذا ولم يقتصر اهتمام المستشرقين والمستغربين على دراسة التاريخ الإسلامي وتشويهه..."[١٣].

ويوجه الدكتور عبدالعظيم الديب خطابه إلى المستغربين مبينا ملامحهم فيقول: "يجيء كلامنا موجها إلى (المستغربين) لا إلى المستشرقين، إلى جماعة من أبناء أمتنا، ينطقون لغتنا، ويتكلمون بلساننا، ولهم ملامحنا وسماتنا، ولكن قلوبهم غير قلوبنا، فقد استلبوا حضاريا وثقافيا، وسقطوا في أسر الحضارة الغازية..."[١٤].

وبيّن بعض المستشرقين وهو هاملتون جب أكبر العوامل في صناعتهم للمستغربين فقال: "والتعليم أكبر العوامل الصحيحة التي تدعو إلى الاستغراب، ولسنا نستطيع الوقوف على مدى الاستغراب في العالم الإسلامي إلا بمقدار دراسته للفكر الغربي وللمبادئ والنظم الغربية، ولكن هذا التعليم ذو أنواع كثيرة تقوم بها جهات متعددة، وبالطبع لابد أن هناك بالفعل قليلا من التعليم على الأسلوب الأوربي في المدرسة، وفي الكلية الفنية وفي الجامعة، وعلى هذا التعليم يتوقف كل ماعداه"[١٥].

---

[٩] عقائد وتيارات فكرية معاصرة، ص ١٥٥.

[١٠] راجع الاستشراق في نطاق العلم وفي نطاق السياسة، عمر فروخ، ص ١٢٥.

[١١] راجع لسان العرب، ابن منظور، بيروت مادة غرب ٢/ ٩٦٧.

[١٢] الحجاب، أبو الأعلى المودودي، ط دار المعرفة ص١١٩.

[١٣] الاستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم، مصطفى السباعي، ص٤ ط المكتب الإسلامي، بيروت ١٩٥٨.

[١٤] المنهج في كتابات الغربيين، عبد العظيم الديب، ص.

[١٥] وجهة الإسلام، هملتون جب، ص١٨، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، المطبعة الإسلامية، القاهرة ١٩٣٤.

وهكذا يمكن القول إن الاستغراب: "ظاهرة نفسية واجتماعية وثقافية معاصرة، يتميز الأفراد الذين يجسدونها بالميل نحو الغرب والتعلق به ومحاكاته. نشأت في المجتمعات غير الغربية – سواء أكانت إسلامية أم لا– على إثر الصدمة الحضارية التي أصابتها قبيل الاستعمار وخلاله".

فإذا كان التغريب عمل ثقافي وسياسي يتولاه المسؤولون في الغرب ومن والاهم من المستشرقين والمستغربين، يهدف إلى طمس معالم الحياة الدينية والثقافية للمجتمعات الإسلامية وغيرها، وإجبار هذه المجتمعات على تقليد الغرب والدوران في فلكه، فإن الاستغراب مرتبط أساسا بالعامل الداخلي، أي بالمكونات الذاتية الاجتماعية والثقافية والسياسية لتلك المجتمعات، حيث أن هذه المكونات – بما تميزت به من انحطاط وتقهقر وجمود– ساعدت على إفراز ظاهرة الاستغراب. يقول أنور الجندي متحدثا عن التغريب: "منذ أن طرح الاستشراق مصطلح (التغريب) في الثلاثينيات من هذا القرن، لفت الأنظار إلى إحدى الغايات الكبرى التي يستهدفها الغزو الثقافي الغربي للفكر الإسلامي، وهي صبغ الثقافة الإسلامية بصبغة غربية، وإخراجها عن طابعها الإسلامي الخالص، واحتواؤها على النحو الذي يجعلها تفقد ذاتيتها وكيانها[١٦].

المتن لغةً واصطلاحاً:

المتن لغة: ما صلب من الأرض وارتفع، يقال متن الشئ أي صلب فهو متن، والمتن من كل شئ: ما صلب ظهره والجمع متان ومتون.

اصطلاحا: قال الطيبي: متن الحديث ألفاظه التي تتقوم بها المعاني. وقال بعضهم: هو ما ينتهي إليه غاية السند من الكلام، واختلفوا هل متن الحديث هو كلام الرسول صلى الله عليه وسلم فحسب، أم هو قول الصحابي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا وكذا، والأصح والأظهر أن المتن يشمل الاثنين لما تقرر من أن السنة إما قول أو فعل أو تقرير.[١٧]

المحور الأول

بيان شبهات المستشرقين والرد عليها

لقد كان للمستشرقين بناء على حملتهم الشاملة على الإسلام وأهله وعلى تفرغهم المكثف لدراسة التراث الإسلامي المؤسس للحضارة الإسلامية شبهات حول متن الحديث مثلت حلقة من حلقات هذه المؤامرة.

شبهات المستشرق كايتاني وجولدزيهر وغاتون ويت:

أما عن شبهات المستشرقين حول متن الحديث النبوي الشريف فترجع إلى نقد المحدثين بأنهم عولوا على انتقاد السند وأغفلوا انتقاد المتن، وهو منهج ضعيف خال من الموضوعية والشمولية في البحث العلمي. ومن المستشرقين الذين تفرغوا لمناقشة قضية نقد المتون:

---

[١٦] شبهات التغريب في الغزو الفكري، أنور الجندي، ط المكتب الإسلامي، ص٣.

[١٧] راجع أصول الحديث، علومه ومصطلحه، د محمد عجاج الخطيب ص ٣١–٣٢، والمستشرقون والحديث النبوي الشريف، بهاء الدين ص ١٢٨.

كايتاني: فقد عقد فصلاً في كتابه "الحوليات الإسلامية" عرض فيه للحديث: سنده ومتنه فقال فيه: "كل قصد المحدثين ينحصر ويركز في واد جدب ممحل من سرد الأشخاص الذين نقلوا المروي، ولا يشغل أحد نفسه بنقد العبارة والمتن نفسه.

ويقول لكن إذا كان الإسناد كامل النظام محتويا أسماء حسنة: استبعد كل اشتباه وسوء ظن، ويقول سبق أن قلنا إن المحدثين والنقاد المسلمين لا يجسرون على الاندفاع في التحليل النقدي للسنة إلى ما وراء الإسناد، بل يمنعون عن كل نقد للنص إذ يرونه احتقارا لمشهوري الصحابة، وقحة ثقيلة الخطر على الكيان الإسلامي١٨.

ومنهم كذلك بل من أشهرهم المستشرق جولديزيهر، فقد قال "إن القسم الأكبر من الحديث ليس إلا نتيجة التطور الديني السياسي والاجتماعي للإسلام في القرن الأول والثاني، وأنه ليس صحيحاً ما يقال من أنه وثيقة للإسلام في عهده الأول عهد الطفولة، ولكنه أثر من أثر الإسلام في عصر النضوج١٩. وقد حاول هذا المستشرق نقد بعض الأحاديث بناء على نقد متنها ليبين حسب زعمه إغفال علماء الحديث التركيز على نقد الحديث حيث يقول صلى الله عليه وسلم: "لا تشد الرحال إلا ثلاثة مساجد "من أنه على الرغم من الزعم من أنه صحيح السند إلا أنه من خلال نقد متنه ومتابعة الأحداث التاريخية المتمثلة في سوء علاقة عبد الملك بن مروان مع عبد الله بن الزبير، ومحاولة صرف الناس عن الحج إلى الكعبة –التي كان يقيم فيها عبد الله بن الزبير– إلى بيت المقدس كلف أو دفع بالزهري إلى اختلاق هذا الحديث.

ومن المستشرقين الذين طعنوا في متن الحديث المستشرق غاتون ويت فقد قال أنه: قد درس رجال الحديث السنة بإتقان إلا أن تلك الدراسة كانت موجة إلى السند ومعرفة الرجال، والتقائهم وسماع بعضهم من بعض.. إلى أن يقول: لقد نقل لنا الرواة حديث الرسول صلى الله عليه وسلم مشافهة ثم جمعه الحفاظ ودونوه، إلا أن هؤلاء لم ينقدوا المتن، ولذلك لسنا متأكدين من أن الحديث وصلنا كما هو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير أن يضيف عليه الرواة عن حسن نية في أثناء روايتهم٢٠.

الرد على الشبهات حول متن الحديث:

إن ما ادعاه المستشرقون من أن علماء الحديث أولوا أهمية نقد السند ومعرفة الرجال وأخبارهم وسيرهم ورحلاتهم، وأغفلوا نقد المتن معتبرين استيفاء كل حديث شروط عدالة الراوي وصحة السند كاف في الأخذ بالحديث، وأنه لا يجوز بعد هذا أن ننقد الحديث أو نتهجم عليه أو نرفض العمل به، كل هذا يعد كذبا محضا وافتراء على التاريخ والحقائق العلمية، ويكفي في الرد عليهم من أن أساس الخلاف بين المذاهب الإسلامية من حنفية ومالكية وشافعية وحنبلية وظاهرية هو إشكالية التعارض بين الحديث الصحيح سندا وبعض القواعد الاصولية كعمل أهل المدينة عند المالكية أو مخالفة الراوي لما روى عند الحنفية بل أن علماء الحديث أنفسهم وضعوا شروطاً

[١٨] دائرة المعارف الإسلامية مادة أصول، نقلا عن المستشرقون والحديث النبوي، د محمد بهاء الدين ص١٢٩–١٣٠.

[١٩] المرجع السابق ص١٤٦.

[٢٠] السنة قبل التدوين، عجاج الخطيب ص٢٥٤.

متعلقة بالسند وشروطا متعلقة بالمتن، وقالوا بأن الحديث لا يعد صحيحاً حتى يجمع بين صحة السند وصحة المتن. فأما في صحة السند فقد اشترطوا ما يأتي:

١. اتصال السند فأخرجوا المنقطع والمعضل والمعلق، والمدلس (بشروط)، وغيرها مما لم تتوافر فيه شروط الاتصال.
٢. أن يكون رواته عدولاً، والعدل من استقام دينه وحسن خلقه، وسلم من الفسق وخوارم المروءة.
٣. أن يكون الرواة ضابطين، والضبط هو تيقظ الراوي حين تحمله وفهمه لما سمعه وحفظه لذلك من وقت التحمل إلى وقت الأداء.
٤. أن يسلم المروي من علة قادحة كإرسال موصول، أو وصل منقطع، أو رفع موقوف، ونحو هذا[٢١].
٥. أن يسلم المروي من علة فادحة كإرسال موصول، أو وصل منقطع، أو رفع موقوف، ونحو هذا.

أما فيما يخص **الشروط المتعلقة بالمتن** فقد اشترطوا شروطا كثيرة منها ما يأتي:

١. أن لا يكون الحديث مخالفاً لصريح القرآن الكريم، فكل ما جاء مخالفاً أو معارضاً للقرآن الكريم من الأخبار فهو باطل.
٢. أن لا يكون مخالفاً لصريح حديث متواتر.
٣. أن لا تكون ألفاظ الحديث ومعانيه ركيكة، والمدار على ركاكة اللفظ أولاً.
٤. أن لا يكون الحديث مخالفاً لصريح العقل، بحيث لا يقبل التأويل، أو يشتمل على ما يدفع الحس ويحكم بكذبه، أو يكون مما تقوم الشواهد على بطالته.
٥. أن لا يشتمل الحديث على كلام لا يشبه كلام الأنبياء (عليهم السلام).
٦. أن لا يشتمل الحديث على المجازفات التي لا يقول مثلها النبي صلى الله عليه وسلم، بأن يفرط بالوعيد الشديد أو الوعد العظيم على الفعل اليسير.
٧. أن لا يكون مخالفاً للقواعد العامة في الحكم والأخلاق.
٨. أن لا يكون مخالفا لسنة الله في الكون.
٩. أن لا يكون مخالفا للحقائق التاريخية المعروفة عن عصر النبي صلى الله عليه وسلم.
١٠. أن لا يكون موافقاً لمذهب الراوي الداعي إلى بدعة[٢٢].

المحور الآخر

بيان شبهات المستغربين والرد عليها

الملاحظ أن الشبهات التي يرددها المستغربون والحداثيون ليست جديدة بل هي ترديد لما قيل أيام الزنادقة، وهم يتتبعون أقوال المستشرقين ويتأثرون بها، ويلاحظ أيضاً أن شبهاتهم تتجه حول رد الحديث وعدم قبول حجيته، ولم تكن لهم حجج تقوم على منهجية واضحة، ويمكن إجمال هذه الشبهات بما يأتي:

---

[٢١] راجع أصول الحديث علومه ومصطلحه، محمد عجاج الخطيب ص٣٠٥.

[٢٢] راجع الوضع في الحديث، عمر فلاته ١/٧٠.

نزع القداسة والتحرر من سلطة النصوص الدينية:

فالخطاب الحداثي العربي في مقاربته النص الديني، ومحاولاته التأويلية له، يسعى حيثياً إلى التحرر من سلطة النصوص الدينية، ومرجعيتها الشاملة من خلال التأكيد على ضرورة (الأنسنة المحضة) للنصوص الدينية، ونقلها من الوضع الإلهي إلى الوضع الإنساني، وعدها غير قابلة للفهم والتحليل ما لم يخلع عنها طابع (الأزلية) و(الغيبية)، ومن ثم فإن الفكر الحداثي ينبغي أن "يستبعد المفاهيم المركزية العاملة في الخطاب الإسلامي، كـ (الله، والوحي، والنبوة، والنص، والشريعة، والعقيدة)" لأن "القول بإلهية النصوص، والإصرار على طبيعتها الإلهية تلك، ستلزم أن البشر عاجزون بمناهجهم عن فهمها، ما لم تتدخل العناية الإلهية لوهب البشر طاقات خاصة من الفهم، وهكذا تتحول النصوص الدينية إلى نصوص مستغلقة على فهم الإنسان العادي، وتصبح شفرة إلهية لا تفهمها إلا قوة خاصة، ويبدو وكأن الله يكلم نفسه، ويناجي ذاته، وتنتفي عن النصوص الدينية صفات الرسالة، والبلاغ والهداية والنور".

وتأسيساً على هذا، فقد تم رفع عائق "القدسية" عن السنة النبوية المشرفة، في القراءة الحداثية، بواسطة عمليات نقدية منهجية خاصة، تتمثل في:

التشكيك في السنة، فهي في الخطاب الحداثي، وقراءته التفكيكية لأصول الفكر الإسلامي (مجموعات نصية مغلقة) ذات بنية (تيولوجية – أسطورية) حسب تعبير أركون قد خضعت لعملية الانتقاء والاختيار والحذف التعسفية التي فرضت في ظل الأمويين، وأوائل العباسيين، أثناء تشكيل المجموعات النصية (كتب الحديث المدعوة بالصحيحة) لأسباب لغوية، وأدبية، وتيولوجية (إيمانية) وتاريخية). كما أن هذه (المجموعات النصية) قد تعرضت لعملية النقل (الشفاهي) بكل مشاكلها، ولم تدون إلا متأخراً، وسط (شائعة في كل الأوساط التقليدية، تقول: إنه قد تم نقل أمين وحرفي ومثالي لكل الأحداث والأقوال والنماذج، التي شهدها الجيل الأعظم). وهذا التشكل لهذه (المجموعات النصية) على هذا الوجه (الشفاهي) قام به جيل من الصحابة، لايرتفعون عن مستوى الشبهات، بل تاريخهم تختلط فيه (الحكايات الصحيحة) بـ (الحكايات المزورة)، بل وسيرة نبيهم، كما يقول أركون قد تعرضت للكثير من (الخرافة) و(المبالغات) كما خضعت (لسيرورة تاريخية معقدة، ضمن خط التبجيل والتقديس، كما أن معايير السلف في نقد الأحاديث، والتي نتج عنها الاستقرار على كتب الصحاح والسنن، كانت محكومة بأطر معرفية زمنية محدودة، لا ترقى إلى مستوى المعايير الموضوعية النهائية، ذلك أن نقل (النصوص المجموعة) تحت اسم القرآن والحديث النبوي بواسطة رجال (أي: بشر) منخرطين في تاريخ معقد، وكانت عملية النقل دينية، واجتماعية، سياسية في آن معاً).

التسوية بين السنة وسائر الخطابات، وعقلنة السنة

ينظر الحداثيون من المستغربين إلى الحديث على أنه مادة تاريخية لا قدسية لها، وهي تراث أكثر من أن يكون وحياً، وهو نص لغوي قابل للنقد، وفي منطق النقد يستقل النص عن المؤلف ولا فرق بين النص النبوي والنص البشري. والخلل واضح في قراءتهم للحديث لأنها في غياب عن البعد المصدري لنص الحديث، وفي غياب

عن القراءة الجامعة للنص في ضوء علاقته مع الأجزاء الأخرى، وأيّ قراءة سابقة له في التراث، بل وفي غياب عن المرجعية اللغوية للنص إذ لا يمكن قراءة النص إلا بما يوافق معهود اللغة عند أهلها[٢٣].

ويرى الحداثيون أن السنة تراث أكثر من أن تكون وحياً، وقد ذكر محمد أركون في معرض رده على من يصفهم بالمتشددين أنهم يعتقدون أن التراث (السنة) ينبغي أن تتغلب على كل بدعة، واعتبار السنة تراثا يتطلب تجريدها من سماتها الخاصة – مصدراً ثانياً للشريعة الإسلامية– ويلزم من ذلك اعتبار السنة مجرد خطاب أو نص ظهر في التاريخ لمهمة خاصة ليس لها طابع الديمومة[٢٤].

وهذا ما جعل محمد شحرور يؤكد بجرأة أن السنة النبوية ما فعله وقاله وأقره النبي ليست وحياً[٢٥]، وراح يستدل على ذلك بقضايا لغوية وعقلية أبعدته عن الصواب، وإن أخطر ما توصل إليه هو وصفها بالتاريخية وأنها كلها اجتهاد من طرف النبي صلى الله عليه وسلم وأن ما قيدته السنة يمكن إطلاقه مرة أخرى مع تغير الظروف الموضوعية، وأنها اجتهاد في حقل الحلال يخضع للخطأ والصواب، وبالتالي فإن ما تأتي به السنة ليس شرعاً وإنما هي قانون مدني يخضع للظروف الاجتماعية[٢٦].

وبناءً على ما تم تأكيده من التيار الحداثي وذلك بفرض التساوي بين أنواع الخطاب، فإن النص النبوي يصبح عندهم عرض لمناهج الألسنيات الحديثة وتحليل الخطاب التاريخي ونقده، ففي منطق النقد يستقل النص عن المؤلف، كما أكد ذلك علي حرب في كتابه: نقد النص فلا فرق عندهم بين النص النبوي والنص البشري[٢٧].

وأخيرا يلاحظ أن أكثر نقاد الحديث قد تنبهوا إلى ما ظاهره التعارض بين القرآن والحديث، وقد ناقشوا هذه الظاهرة في شرح الحديث، وعملوا على علاجها في ضوء علم الدلالة، ولهم توجيهات تدل على عمق الفهم ودقة التأصيل، وسلامة المنهج النقدي. وهذه النتيجة تدل على عدم صحة اتهام النقاد بالغفلة عن نقد المتن، وعدم القدرة على توجيه النصوص المشكلة وتقديم فهم يتوافق مع العقل الرجيح والنقل الصحيح.

ويلاحظ أن أكثر الطاعنين القائلين بالتعارض بين القرآن والحديث –من غير إمعان وتدبر أو مراجعة كلام العلماء– وقعوا في مخالفة القرآن الذي يدعون الدفاع عنه، ومخالفة اللغة التي رأوا أنها تحل محل السنة في تفسير القرآن، ومخالفة العقل الصريح الذي يدعون مراعاته والانتساب إليه، ومخالفة ما اتفق عليه العلماء سلفا وخلفا.

ويلاحظ أن أكثر الطاعنين غير مؤهلين للنظر في فهم النص أو نقده؛ وهم لا يملكون أدوات الاجتهاد التي تؤهلهم لفهم كلام العلماء فضلا عن نقده والتعقيب عليه، ومن مظاهر فقرهم العلمي الضعف الشديد في اللغة؛ مما جعلهم يسيؤون فهم النصوص الشرعية ونصوص العلماء، ومن المظاهر الخلط بين مستويات الدلالة

---

[٢٣] القراءة الحداثية للسنة النبوية، د محمد عبد الفتاح الخطيب ص٢٠٠–٢٠٣ ضمن ملخصات البحوث للندوة الدولية العلمية الرابعة: السنة النبوية، دبي ٢٠٠٩م.

[٢٤] راجع الفكر الإسلامي نقد واجتهاد ص١٠٢.

[٢٥] راجع نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي ص٦٢.

[٢٦] المصدر نفسه.

[٢٧] راجع نقد النص ص١٢.

المختلفة: فهم لا يفرقون بين النص والظاهر، والمحكم والمؤول، والقطعي والظني، والمنطوق والمفهوم، ولا يستطيعون التعامل مع هذه الدلالات عند تعارضها، ومن الإشكال في فهمهم للحديث النبوي ما يأتي:

أولاً: توجيه الطعن إلى الرواية المجملة المختصرة وإهمال الاطلاع على الروايات الأخرى التي توضح المقصود بالحديث.

ثانياً: رفض الجمع بين نصوص القرآن والسنة عند تعارض المجمل والمفسر أو العام والخاص أو المطلق والمقيد أو الظاهر والمؤول أو المنطوق والمفهوم، والحكم على الحديث بالوضع إذا خالف ظاهر القرآن.

ثالثاً: عدم التفريق بين الحديث الموضوع والحديث المشكل؛ فهم يحكمون على الحديث بالوضع لمجرد أنهم فهموا منه معنى يتعارض مع ظاهر القرآن، بل يردون الحديث بالرأي المجرد؛ فإذا كانت الآية تحتمل معنيين فإن الطاعن يذهب إلى المعنى المخالف للحديث دون أن يدعم رأيه بدليل.

الخاتمة

هذه الدراسة عالجت موضوع البحث بعنوان: "شبهات المستشرقين والمستغربين حول متن الحديث والرد عليها"، جاء البحث في تمهيد ومحورين وخاتمة، التمهيد عن مصطلحات البحث في المستشرقين والمستغربين ومتن الحديث، وكان المحور الأول عن بيان شبهات المستشرقين ومنهم كيتاني وجولدزيهر وغاستون ويت ثم الرد عليها، وتناول المحور الآخر: بيان شبهات المستغربين ومنهم محمد أركون، ومحمد عابد الجابري، ونصر حامد أبو زيد، ومحمد شحرور، وجمال البنا وغيرهم؛ ثم الرد عليها.

وقد توصل البحث إلى بعض النتائج وأهمها:

١. إن شبهات المستشرقين قديماً والمستغربين حديثاً ركزت على الحديث النبوي لأهميته ومكانته وخطورته في التشريع الإسلامي، وهي معنية بالمتن أكثر من السند.
٢. إن المستغربين والحداثيين خاضوا في متن الحديث معتمدين على المنطق والعقل ولا يجوز لهم الخوض –في متن الحديث– لأنهم غير مؤهلين ولا متخصصين فيه، ولا يجوز شأن بقية العلوم الخوض في علم إلا للمتمكنين فيه والمدققين الحذاق به.
٣. إن الشبهات من قبل أعداء الإسلام قديما من المستشرقين، وحديثا من المستغربين تزيد من همة علماء الحديث الغيورين المتمسكين بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم في التصدي لها، والتنبيه عليها، والكشف عن الفساد والضلال فيها، وهي المهمة التي يحرص عليها كل مسلم.

وفي ضوء هذه النتائج أوصي جميع الباحثين والمتخصصين بضرورة إحياء الندوات العلمية النافعة والملتقيات الإسلامية الفاعلة لجمع كلمة المسلمين ووحدة صفهم للوقوف تجاه الأعداء في الداخل والخارج، والله يبارك في الجهود ويكللها بالنجاح والتوفيق، والحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

١. الاتجاهات الفكرية المعاصرة: علي جريشة.
٢. الاستشراق في نطاق العلم وفي نطاق السياسة: عمر فروخ.
٣. الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، محمود حمدي زقزوق.

٤. الاستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم: مصطفى السباعي، ط المكتب الإسلامي، بيروت ١٩٥٨م.
٥. أصول الحديث، علومه ومصطلحه: د محمد عجاج الخطيب، ط دار المعرفة، بيروت ١٩٨٩م.
٦. الثقافة الإسلامية: د. حامد محمود اسماعيل.
٧. الحجاب: أبو الأعلى المودودي، ط دار المعرفة .
٨. دائرة المعارف الإسلامية: مادة أصول.
٩. السنة قبل التدوين: عجاج الخطيب.
١٠. شبهات التغريب في الغزو الفكري: أنور الجندي، ط المكتب الإسلامي.
١١. عقائد وتيارات فكرية معاصرة: مجموعة مؤلفين.
١٢. الفكر الإسلامي نقد واجتهادك.
١٣. القاموس المحيط: الفيروزآبادي.
١٤. القراءة الحداثية للسنة النبوية، د محمد عبد الفتاح الخطيب، ضمن ملخصات البحوث للندوة الدولية العلمية الرابعة: السنة النبوية، دبي ٢٠٠٩م.
١٥. لسان العرب: ابن منظور، ط دار صادر، بيروت ١٩٩٠م.
١٦. مختار الصحاح: الرازي.
١٧. المستشرقون والحديث النبوي: د. محمد بهاء الدين، ط دار النفائس، عمان ١٩٩٩م.
١٨. المصباح المنير: أحمد الفيومي، ط مصطفى البابي الحلبي، مصر ١٣٤٢هـ.
١٩. المنجد في اللغة: لويس معلوف.
٢٠. المنهج في كتابات الغربيين: عبد العظيم الديب.
٢١. موقف المستشرقين من السنة: أمامة محمد سالم الحبال، ط دا الفيحاء دمشق ٢٠٠٠م.
٢٢. نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي: محمد شحرور.
٢٣. نقد النص: علي حرب.
٢٤. وجهة الإسلام: هملتون جب، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، المطبعة الإسلامية، القاهرة ١٩٣٤م.
٢٥. الوضع في الحديث: عمر فلاته.